الناظر والرقيب من اسماء هذا الجنس من الحيات

﴿ المُعَطِّشَة ﴾ Dipsas جنس من الحيات يعرف بهذا الاسم عند علماء الحيوان والاسم العربي ترجمة الاسم اليوناني . والمعطشة ذكرها ابن سينا وعدها من الافاعي (Vipera) قال « قالوا ان المعطشة طولها شبر واحد وعلى بدنها آثار سود كثيرة ورأسها صغير وعنقها غليظ ويبتدئ حلقها من عنق غليظ الى ذنب دقيق . وقال قوم انها اكثر ما تكون هذه في بلاد لوبية والشام وصورتها صورة الافعى ولون مؤخرها الى الاذناب الى السواد وتنساب مشيلة ذنبها » (المقالة الثالثة من الفن السادس من الكتاب الرابع) . ولا شبهة في ان الحية التي كانت تعرف بالمعطشة عند القدماء غير الحية المعروفة بهذا الاسم في ايامنا فهذه غير سامة والمعطشة عندهم كانت من ذوات السموم ويظن بعضهم انها من الافاعي (Vipera) لكنني اطلقت المعطشة على الحية التي تعرف عند علماء الحيوان بالمعطشة اقتداء بهم وان تكن غير المعطشة التي ذكرها ابن سينا

الدكتور امين المعلوف

الزهراء والزاهرة في الاندلس

شرعت حكومة اسبانيا منذ بضعة اشهر تنقب آثار هاتين المدينتين بعد ان مضى على خرابهما نحو ٩٠٠ سنة لكنها تكتم اعمالها على ما يظهر عن اعين الرقباء ولا يعلم سبب لذلك فقد كتب جماعة من الانكليز المولعين بالآثار العربية انهم رأوا في متحف قرطبة في الشهر الماضي حجارة عليها نقوش عربية عرفوا من شكلها انها ترجع الى القرن الرابع من الهجرة وظهر انها حديثة في المتحف ولم تكن مقيدة في قائمة الآثار التي فيه . وكان هناك عجوز سألوها عن هذه الآثار فقالت انهُ جيء بها حديثاً من قرطبة القديمة وهو اسم الزهراء عند عامة الاسبانيين . فركب هؤلاء الانكليز مركبة في اليوم التالي وساروا في الوادي الكبير نحو ثلاثة اميال الى ان وصلوا الى دير القديس ايرونيموس وهو مبني بانقاض الزهراء التي كانت ظاهرة على سطح الارض . وحول الدير سور كبير يظهر انهُ من بناء المنصور رأوا فيهِ باباً جديداً خرج منهُ رجل وقال لهم انهُ لا يسمح لهم بالدخول ما لم يكن معهم اذن بذلك من الحكومة فأروهُ اوراقاً تدل على انهم من علماء الآثار فاذن لهم بالدخول لكنهُ لم يأذن لهم ان يرسموا او يصوروا شيئاً

واول شيء رأوهُ اكوام من الحجارة المنقوشة عثروا منها انها كلها اندلسية عربية من القرن الرابع الهجري وكانت من نوع الحجارة التي رأوها في التحف . ونقوشها تختلف عن نقوش الجامع الاموي في دمشق لكنها شبيهة جدًّا بالنقوش الفاطمية بل بعضها كانهُ منقول عن جامع ابن طولون او الجامع الازهر او غيرهما من مباني الدولة الفاطمية في مصر . ورأوا في بعضها كتابات منها ما يشبه كتابات قرطبة في ذلك العهد كالكتابة على محراب الجامع الاموي في قرطبة لكن اكثرها كوفي ساذج مثل الكوفي الاشبيلي او يمازجهُ شيءٌ من الزخرفة كالخط الكوفي الذي ادخلهُ القرامطة

ورأوا بين هذه النقوش صوراً كثيرة من صور الحيوان التي قلما ترى في ابنية المسلمين وظنوا ان سبب ذلك ان ام عبدالرحمن كانت مسيحية ولدتهُ في اشبيلية وهي من نسل الاميرة سارة من زوجها البتي . وربي عبد الرحمن مع والدته في اشبيلية عاصمة المملكة القوطية اليمنية الى ان صار عمرهُ عشر سنوات فربي هناك على مبادىء الدولة القوطية اليمنية واذواقها فلما بنى الجامع الاموي في قرطبة اتبع السنة كما اتبعها اجدادهُ لكنهُ لما بنى قصرهُ في الزهراء اتبع فيهِ اهواءهُ واميالهُ فاحدث فيهِ الصور والتماثيل . اما المنصور بالي الزاهرة فكان يميناً حتى وقد عثر على حجر في اشبيلية كتب عليهِ انهُ نقش بامرهِ لبناء الزاهرة وهذا الحجر صنع لفوّارة وعليهِ صور حيوانات وطيور كالتي ترى في نقوش انفسطاط

وقالوا ان الجماعة الذين تولوا التنقيب عن هذه الآثار ليسوا شديدي العناية بها فانك ترى قطعاً من الآنية الزجاجية والصينية والحجارة المنقوشة مكسرة ومبعثرة في كل ناحية كأن الناقبين ينقبون عن دفائن المال والتحف لا عن الآثار الثمينة وقد سمعنا عن بالم ان النهب بقي في الزهراء اياماً ولم يترك الناهبون فيها شيئاً لهُ قيمة

هذه هي الزهراء التي قال فيها الشاعر

وقفت بالزهراء مستعبراً معتبراً اندب اشتاتا
فقلت يا زهراء الا فارجعي قالت وهل يرجع من ماتا
فلم ازل ابكي وابكي بها هيهات يبني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادب يندبن اموتا

وقد كانت الزاهرة والزهراء من مفاخر العرب في الاندلس وهما قصران او مدينتان في ضواحي قرطبة من اعظم المباني التي وصل الينا وصفها في التاريخ بنى الزهراء الخليفة عبدالرحمن الناصر الاموي المعروف بعبد الرحمن الثالث وهو الذي بنى الجامع الكبير في قرطبة ومدرسة

الطب بها وهي اوّل مدرسة للطب أُنشئت في اوربا . وقيل ان سبب بناء الزهراء على ما جاء في نفح الطيب ان الناصر مات له سرّية وترك مالاً كثيراً فامر ان يفك بذلك المال اسرى المسلمين وطلب في بلاد الافرنج اسيراً فلم يوجد فشكر الله تعالى على ذلك فقالت له جاريتهُ الزهراء وكان يحبها حبًّا شديداً اشتهيت لو بنيت لي بهِ مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمال قرطبة وبينها وبين قرطبة ثلاثة اميال او نحو ذلك واتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها وجعلها مستترهًا ومسكنًا للزهراء وحاشية ارباب دولتهِ ونقش صورتها على الباب . فلما قصدت الزهراء في محلها نظرت الى بياض المدينة وحسنها في حجر ذلك الجبل الاسود فقالت يا سيدي ألا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي فامر بزوال ذلك الجبل فقال بعض جلسائهِ أعيذ امير المؤمنين ان يخطر لهُ ما يشين العقل سماعهُ لو اجتمع الخلق ما ازالوهُ حفراً ولا قطعًا ولا يزيلهُ الاّ من خلقهُ فأمر بقطع شجره وغرسهِ تينًا ولوزًا . ولم يكن منظر احسن منها ولاسيما في زمان الازهار وتفتح الاشجار وهي بين الجبل والسهل

وقال ابن خلكان « الزهراء من عجائب ابنية الدنيا انشأها ابو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر احد ملوك بني امية بالاندلس بالقرب من قرطبة في اوّل سنة خمس وعشرين وثلثمائة ومسافة ما بينهما اربعة اميال وثلثا ميل وطول الزهراء من الشرق الى الغرب الفان وسبعمائة ذراع وعرضها من القبلة الى الجنوب الف وخمسمائة ذراع وعدد السواري التي فيها اربعة آلاف سارية وثلثمائة سارية وعدد ابوابها يزيد على خمسة عشر الف باب . وكان الناصر يقسم جباية البلاد ثلاثًا فثلث للجند وثلث مدّخر وثلث ينفقهُ على عمارة الزهراء . وكانت جباية الاندلس خمسة آلاف الف دينار واربعمائة الف الف وثمانين الف دينار (كذا) [1] ومن السوق المستغلة سبعمائة الف دينار وخمسة وستون الف دينار . وهي من اهول ما بناهُ الانس واجله خطراً واعظمهُ شأنًا »

وقال بعض من أرخ الاندلس « كان يتصرّف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب الف وخمسمائة دابة وكان من الرجال من لهُ درهم ونصف ومن لهُ الدرهمان والثلاثة وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدّل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل . وقال ابو حيان ابتدأ الناصر بناء الزهراء

(١) (المقتطف) لا يعقل ان جباية الاندلس كانت كذلك اي ٨٠٠٠٠٠٠ دينار وكان اذا حذفت كلمة الف من القسم الاول والثاني صار العدد ٨٠٠٠ و ٤٨٠٠ دينار اي نحو مليونين وربع من الجنيهات وهو معقول

اول يوم من محرم سنة ٣٢٥ وجعل طولها من شرق الى غرب الفين وسبعمائة ذراع وتكسيرها تسعمائة الف ذراع وتسعون الف ذراع كذا نقلهُ بعضهم والنظر فيهِ مجال. قال وكان يجيب على كل رخامة كبيرة او صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومؤونة حملها. وجلب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردي والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة والحوض المنقوش المذهب من الشام وقيل من القسطنطينية وفيهِ نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان وليس لهُ قيمة . ولما جلبهُ احمد الفيلسوف وقيل غيرهُ امر الناصر بنصبهِ في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليهِ اثني عشر تمثالاً وبنى في قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة وكان سمكهُ من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونهُ المخلونة اجناسهُ وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك . وجعلت في وسطهِ البقيمة التي اتحف الناصر بها أليون ملك القسطنطينية وكانت قوائم هذا القصر من الذهب والفضة . وهذا المجلس في وسطهِ صهريج عظيم مملوء بالزئبق وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملوّن والبلّور الصافي وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانهِ فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا أراد ان يُفزع احداً من اهل مجلسهِ أومأ الى احد صقالبتهِ فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيّل لكل من في المجلس ان المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس وقيل كان ثابتاً على صفة هذا الصهريج . وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناؤهُ في الجاهلية ولا في الاسلام وانما تهيأ لهُ لكثرة الزئبق عندهم . وكان بناء الزهراء في غاية الاتقان والحسن وبها من المرمر والعمد كثير . واجرى فيها المياه واحدق بها البساتين »

وذكر بعضهم ان عدد الفتيان بالزهراء كان ١٣٧٥٠ فتىً ودخالتهم من اللحم كل يوم حاشا انواع الطير والحوت ١٣٠٠٠ رطل وعدّة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار والخدم ٦٣١٤ والمرتب من الخبز لحيتان المجيرة التي فيها ١٢٠٠٠ رغيف كل يوم وينقع لها من الحمّص الاسود ستة اقفزة . وقدّر بعضهم النفقة في الزهراء فكانت ٣٠٠٠٠٠ دينار كل سنة مدة خمسة وعشرين عاماً

وقال ابو حيان في وصف بنائها على ما جاء في نفح الطيب ايضاً « وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس وكان الذين يجلبونهُ عبد الله بن يونس عريف البنائين وحسن

وعلي بن جعفر الاسكندراني وكان الناصر يصلهم على كل رخلة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير . وقال بعض ثقات المؤرخين انهُ كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير وعلى كل سارية بثمانية دنانير . قيل وكان عدد السواري المجلوبة من افريقية الف سارية وثلاث عشرة سارية ومن بلاد الافرنج تسع عشرة سارية واهدى اليهِ ملك الروم مائة واربعين سارية . وسائرها من مقاطع الاندلس تركونة وغيرها فالرخام المجزع من رية والابيض من غيرها والوردي والاخضر من افريقية من كنيسة اسفاقس واما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبهُ اليهِ احمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الاسقف القادم من ابلياء واما الحوض الصغير الاخضر المنقوش بتماثيل الانسان فجلبهُ احمد من الشام وقيل من القسطنطينية مع ربيع الاسقف ايضاً وقالوا انهُ لا قيمة لهُ لفرط غرابتهِ وجمالهِ وحمل من مكان الى مكان حتى وصل في البحر ونصبهُ الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليهِ اثني عشر تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة اسد الى جانبهِ غزال الى جانبهِ تمساح وفيما يقابلهُ ثعبان وعقاب وقيل وفي الجهتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من افواهها . وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنهُ الحكم لم يتكل فيهِ الناصر على امين غيرهِ وكان يخبز في ايامهِ في كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمئة خبزة وقيل اكثر الى غير ذلك مما يطول تتبعهُ . وقيل ان مبلغ تحصيل النفقة في بناء الزهراء مائة مُدي من الدراهم الناصرية بكيل قرطبة وقيل ان مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مدياً وسبعة اقفزة من الدراهم المذكورة . واتصل بنيان الزهراء ايام الناصر خمساً وعشرين سنة شطر خلافتهِ ثم اتصل بعد وفاتهِ خلافة ابنهِ الحكم كلها وكانت خمسة عشر عاماً واشهراً .

وكان الناصر كلفاً بتشييد المباني الفخمة فانفق عليها الاموال الطائلة فلم يرض ذلك قاضيهُ منذر بن سعيد فكان يكثر من تقريعهِ ووعظهِ . قيل انهُ حضر معهُ يوماً في الزهراء فقام الرئيس ابو عثمان بن ادريس فانشد للناصر قصيدة منها

سيشهد ما ابقيت انك لم تكن مضيعاً وقد مكَّنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج واطرق منذر ساعة ثم قام منشداً

يا باني الزهراء مستغرقاً اوقاتهُ فيها اما تعقلُ

لله ما احسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر يا ابا الحكم لا تذبل ان شاء الله فقال متذر اللهم اشهد اني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحاً . ولم يطل الامر بعد ذلك حتى هدمت الزهراء والزاهرة كما سيجيء

اما الزاهرة فهي من مباني المنصور محمد بن ابي عامر حاجب الخليفة هشام حفيد الناصر المذكور آنفاً . قال في نفح الطيب ما ملخصهُ : انهُ عند ما استفحل امر المنصور وكثر حسادهُ واضدادهُ وخاف على نفسهِ في الدخول الى قصر السلطان بنى الزاهرة على نهر قرطبة سنة ٣٦٨ هجرية وبنى معظمها في سنتين وانتقل اليها سنة ٣٧٠ ونزلها بخاصتهِ وشحنها بجميع اسلحتهِ واموالهِ واسنتهِ واتخذ في داخلها الدواوين ثم اقطع ما حولها لوزرائهِ وكتابهِ فابتنوا فيها كبار القصور وتنافس الناس بالنزول في اكنافها حتى اتصلت ارباضها بارباض قرطبة . وحجر على الخليفة فكان لا يراهُ احد . وذكر بعض مؤرخي الاندلس ان المنصور بن ابي عامر كان يزرع كل سنة الف مدّ من الشعير قصيلاً لدوابهِ الخاصة بهِ . وكان يصنع في كل عام اثني عشر الف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء

وجاء في نفح الطيب ايضاً ما نصهُ « كان المنصور مرة في قصرهِ الذي بالزاهرة فتأمل محاسنهُ ونظر الى مياههِ المطردة وانصت لاطيارهِ المغردة وملأ عينهُ من الذي سواهُ من حسن وجمال والتفت في الزاهرة من اليمين الى الشمال فانحدرت دموعهُ وتجهم وقال ويل لكِ يا زاهرة فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديهِ عن قريب فقال لهُ بعض خاصتهِ ما هذا الكلام الذي ما سمعناهُ من مولانا قط وما هذا الفكر الردي الذي لا يليق بمثلهِ شغل البال فقال والله لتعرون ما قلت وكأني بمحاسن الزاهرة قد نحيت ورسومها قد غيرت وبياتها قد هدمت ومحيت وبخزائنها قد ذهبت وبساحاتها قد اضرمت بنار الفتنة والهبت . قال الحاكي فلم يكن الاّ ان توفي المنصور وتولى المظفر فلم تطل مدتهُ فقام بالامرة اخوهُ عبد الرحمن الملقب بشنجول فقام عليهِ المهدي والعامة وكانت منهم عليهِ وعلى اومهِ الطامة وانقرضت دولة آل عامر ولم يبقَ منهم آمر وخربت الزاهرة ومضت كامس الدابرة ونقلت منها النسوت الملوكية والقساكر واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح وتلاشى امرها فلم يرجَ لفسادها صلاح وصارت قاعاً صفصفاً وبدلت بايام الترح عن ايام الفرح والصفا .... ولم تبقَ دار في الاندلس الاّ ودخلها من فيئها حصة كثيرة او قليلة .... ولقد حُكي ان بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية فسبحان من لا يزول سلطانهُ ولا ينقضي ملكهُ لا اله الاّ هو »